المنهج التكاملي في النقد الأدبي:
هل يصلح بديلا عن ضيق المنهج الواحد؟

د. رمضان حينوني
مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تمنراست
المركز الجامعي لتامنغست
ramdanne@gmail.com

توطئة:

في ظل ما تعرضت له الجهود النقدية العربية من اتهام بالميل إلى التبعية التنظيرية للغرب، يظهر المنهج التكاملي محاولا تعويض النقص الحاصل في الجانب التطبيقي لتلك المناهج، فهو المنهج الذي يأخذ من مجموعة مناهج بطرف، بغرض التخلص من ضيق المنهج الواحد، أو من صرامته العائدة أساسا إلى مقولاته الخاصة ومنطلقاته المحددة.

وعلى الرغم من عدم اعتراف بعض النقاد بهذا المنهج، على اعتبار أن لكل منهج قواعده وأسسه الخاصة به التي تميزه عن غيره، فإن آخرين ينظرون إليه بوصفه ضرورة أمام اتساع آفاق النصوص الأدبية، ومحدودية النتائج التي يصل إليها كل منهج منفردا على اعتبار أنه" لا يوجد منهج شامل كامل يكتفي بنفسه"[1]، خصوصا إذا علمنا أن المنهج في حد ذاته وسيلة للتحليل والدراسة وليس غاية يسعى الدارس إلى تحقيقها. وإذا كان تحليل النص في كل حالاته لا يستطيع الادعاء بامتلاك الحقيقة، فإن المنهج أو المناهج المتبعة فيه لا يمكن أن تضمن الوصول إلى حقيقة النص الأدبي التي ليس بعدها جدل أو شك.

نستطيع القول- والحال هذه- إن المقاربة النصية هي في بعض أوجهها محاولات لها نصيب من الفضل في تقريب النص إلى القارئ بدرجات متفاوتة، ولكنها لا تصل أبدا إلى الكمال أو إلى الاكتفاء، ولا يخرج المنهج التكاملي عند المؤمنين به عن هذه القاعدة؛ ذلك أنه يحاول أن يقدم رؤية متعددة الأوجه لها ما يجمعها أو ما يوحدها، لتصل إلى تقديم قراءة مقبولة للعمل الأدبي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولا ينبغي في هذا المقام أن يُتعصب لهذا المنهج أو أن يعاب على المناهج الأخرى شيء من إجراءاتها أو أدواتها أو أن تُستصغَر النتائج التي تصل إليها.. غاية ما يُسعى إليه هو إفساح المجال أمام تلك الأدوات والإجراءات بمختلف توجهاتها لتعالج النص الأدبي تفسيرا أو تأويلا أو تحليلا

ما المنهج التكاملي؟

التكامل في اللغة هو المشاركة في اكتمال الشيء، والمنهج التكاملي هو المنهج الذي تشترك فيه عناصر من مناهج مختلفة قد تقل أو تكثر بحسب درجة الائتلاف فيما بينها، ولا يقصد به الكمال لأنه لا كمال في ما تعلق بفكر أو علم إنساني مبني على الرأي والنظر العقلي.

يتحدث الدكتور عبد العزيز عتيق عن المنهج التكاملي في إطار حديثه عن المناهج السياقية، ويعرفه بقوله: "هو منهج يأخذ من كل منهج ما يراه معينا على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها"[2]، وهو بذلك يقترح إمكانية الجمع بين المنهج التاريخي والفني والنفسي جمعا يمكننا من دراسة النص من زوايا مختلفة. ولعل المنهج الفني بين هذه المناهج هو الذي دفع الناقد إلى تصور إمكانية الجمع بينها، على اعتبار أنه الجانب الذي يلامس النص في ذاته بينما يتناول المنهجان الآخران ما يعلق بالنص من سياقات خارجية .

غير أن التكامل لا يرتبط بالمناهج السياقية وحدها، بل يمكن أن يكون بين منهج نسقي وآخر أو أخرى سياقية. فتجربة لوسيان غولدمان في البنيوية التكوينية تمثل شكلا من أشكال النزوع إلى النقد التكاملي، أو النقد المركب أو التركيبي الذي جاء ردا على أحادية المنهج التي حاولت النظرية النقدية اعتمادها بدء من جهود الشكليين الروس؛ فقد أقر غولدمان بضرورة إدراج السياق التاريخي والاجتماعي والسيرة الذاتية للمنتج إلى جانب بنية النص اللسانية من خلال الآليات التي تربط بين نسق النص الداخلي وسياقاته الخارجية؛ وبالتالي فإن النظر إلى أربع بنيات مختلفة هي اللسانية والثقافية والاجتماعية والتاريخية عند غولدمان يعتبر منهجا تكامليا يرضي أولئك الذين رأوا أن المناهج النقدية الحديثة تكرس الهيمنة الفكرية الغربية، ولا بد من كسرها بضم السياقات المختلفة خصوصا إذا علمنا أن الخلفية الثقافية والاجتماعية لهذا المفكر الكبير كانت ماركسية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي نقدنا العربي، يعد محمد بنيس واحدا من النقاد الذين ساروا على منوال غولمان في نقد النصوص العربية، حين جمع بين البنيوية اللسانية والمنهج الاجتماعي الجدلي جمعا حاول فيه بنيس في دراسته (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب)" الاستفادة من أكثر من منهج نقدي، وذلك بهدف بلورة منهج آخر يريده أكثر تكاملا، ويمكنه من النظر إلى النص الأدبي من منطلقاته الفكرية."[3]

والمنهج التكاملي يقوم" بتسخير جميع المدارس النقدية المناسبة في تكاملها، وذلك من خلال الاستعانة بأبرز وأهم أدواتها، والاستفادة من أدق أساسياتها قدر الإمكان"[4] إيمانا بعدم قدرة أي منهج بمفرده على دراسة النص دراسة كافية مقنعة، بل قد " يستعير مجموعة من النظريات المتباينة من العلوم المختلفة، ولكن السمة البارزة لتلك التوجهات تبدو لسانية وأسلوبية أكثر من غيرهما".[5]

إن المنهج النقدي التكاملي" هو أداة تستقي قوتها من ممارسة نقدية مركبة، تجمع المعطيات الفنية والتاريخية، والأبعاد النفسية، والاجتماعية، والعقدية، أما الشرط الوحيد في بناء هذا المنهج النقدي، فهو الارتكاز على رؤية نقدية شمولية واحدة، والأخذ بكل أداة منهجية صغرى تستجيب لهذه الرؤية وتوظيفها".[6]

ولقد كان التعامل بهذا النوع من المناهج قائما عند العرب في بداية العصر الحديث، وتذكر بعض المصادر أن السيد قطب هو أول من استعمله أو دعا إليه في كتابة (النقد الأدبي) في النصف الأول من القرن العشرين، كما دعا إليه طه حسين و"سماه المقياس المرّكب وتابعه في هذا الدكتور شكري فيصل في المنهج التركيبي. وحين اكتفى الثاني بالتنظير كان يسعى الأول إلى شيء غير قليل من التطبيق".[7]

كما نجد نقادا عربا آخرين تحدثوا عنه، منهم عبد القادر القط، وشوقي ضيف و"يعد إبراهيم عبد الرحمن واحداً ممن حددوا عناصره، مثل استناد النص إلى الواقع الذاتي والاجتماعي والطبيعي وانفتاحه على أشياء أخرى ومن ثم إعادة تشكيله فنياً، لأنه قابل للإجراء الفني والنقدي، وغير قائم على التناقض مع المناهج النقدية القديمة والحديثة."[8]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بين المنهج واللامنهج:

يشدد النقاد القائلين بإمكانية وجود منهج تكاملي على ضرورة التسلح بآليات المناهج المختلفة والتحكم فيها وامتلاك القدرة على الجمع فيما بينها عند الاقتضاء؛ فمن غير المنطقي أن يسمى هذا المنهج منهجا إذا لم يكتسب صفة المنهج ممثلة في آلياته النظرية والتطبيقية. وهي في عمومها مأخوذة من المناهج الأخرى غير أنها تتمتع بخاصية التآلف والتكامل والإحاطة بجوانب النص المختلفة. ويبعدنا هذا عن تسمية (عدم الالتزام المنهجي الذي خلص إليه الدكتور قائد غيلان في وصف الظاهرة النقدية في اليمن بقوله" إن النقاد اليمنيين يلتقون عند نقطة واحدة هي عدم الالتزام المنهجي، والاغتراف بحرية مطلقة من منابع ومناهج شتى؛ تستوي في ذلك الدراسات الأكاديمية وغير الأكاديمية. ووَجد كثيرٌ منهم ضالته في المنهج التكاملي الذي يسمح للناقد أن يستفيد من أيٍّ من المناهج أو بعضها وأحيانا كلِّها في وقت واحد.[9] إذ إن تسمية (عدم الالتزام المنهجي) قد توحي بالخروج عن المنهج، أو أن المنهج التكاملي لا يحمل صفة المنهج.

كما يساوي بعضهم بين المنهج التكاملي واللا منهج، لأنه عندهم يفتقد إلى عناصر محددة تجعله مستقلا عن أمثاله، وقد وصف اللا منهج عند عبد المالك مرتاض بأنه معادل للمنهج التكاملي على الرغم من أن تلميذه يوسف وغليسي يوضح خاصية منهج مرتاض بقوله:" هو التطبيق المنهجي المرن الذي يتيح للناقد العربي أن يدخل تعديلات طفيفة على المنهج الغربي استجابة لخصوصيات النص العربي، لا أن يطبقه عليه تطبيقا آليا أعمى".[10] هذه التعديلات التي ربما أملاها تعلق الناقد العربي ببعض سمات النقد القديم القائم على كثرة الالتفاتات، وتعدد الجوانب المدروسة. كما يستخدم مرتاض تسمية التعددية المنهجية، ويقول عنها: " إن التعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النقدية الغربية، ونرى أنْ لا حرج في النهوض بتجاربَ جديدةٍ تمضي في هذه السبيل بعد التخَمَة التي مُنِيَ بها النقد من جرّاء ابتلاعه المذهب تلوَ المذهب، خصوصاً في هذا القرن أي القرن العشرين" [11]

وفي نظر محمد عزام" من المستحيل خلط هذه المناهج المتباينة للخروج بفرية منهج تكاملي"[12]، ذلك أن خاصية تناص النص الواحد مع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نصوص عدة قديمة وحديثة وتداخله معها يمنع إمكانية نجاح هذا النوع من النقد في الوصول إلى خصائص النص الأساسية وميزاته الخاصة.

إن اختلاف الآراء حول المنهج التكاملي يضمن لهذا المنهج وجودا في النقد الأدبي، على الأقل عند أولئك الذين لا يريدون للمنهج أن يكون قيدا يكبل الناقد ويبقيه في دائرة أسسه وإجراءاته، حتى وإن كانت لا تناسب النص المدروس أو لا تصل في دراسته إلى نتائج ذات بال، وخاصة إذا أخذ بالرأي القائل إن المنهج الواحد لا يصلح لكل النصوص، إذ كل نص يدعو ناقده إلى أدوات منهجية معينة قد لا ينجح في تناول نص آخر.

مبررات المنهج التكاملي :

إن تصفحا لمقدمات كثير من البحوث الأكاديمية والرسائل الجامعية يجعلنا نلحظ إشارات أو اعترافات من الباحثين مفادها صعوبة اعتماد منهج واحد في بحوثهم التطبيقية؛ لهذا يشيرون إلى اعتماد منهج يسمونه رئيسيا، وأخرى يسمونها أدوات منهجية مساعدة، تستقى من مناهج مختلفة وتساعد على الوصول إلى النتائج المرجوة. وعليه فإنه بالإمكان قراءة " نصّ ما في ضوء سيطرة منهج نقدي على آخر... في صميم القراءة التكاملية."[13] وهذا شكل من أشكال المنهج التكاملي الذي قد تتساوى فيه إسهامات الأدوات المنهجية المشكلة له وقد يغلب بعضها على بعض.

إضافة إلى ذلك، يمكننا إرجاع مبررات اعتماد المنهج التكاملي إلى ثلاثة عوامل:

الأول هو كثرة الانتقادات والثغرات الي سجلت على المناهج الكثيرة المتلاحقة، سواء على المستوى النظري أو على مستوى التطبيق عند الممارسة النقدية، وخصوصا ما تعلق بالاتهامات المتبادلة بين أنصار النسق وأنصار السياق بخصوص قيمة العوامل الخارجية في دراسة النص؛ فسلدن وستروك مثلا يريان في البنيوية " نزعة مضادة للنزعة الإنسانية، نظرا لمعارضة البنيويين لكل أشكال النقد الأدبي الي تجعل من الذات الإنسانية مصدرا للمعنى الأدبي وأصله."[14] أما جوناتان كولر فيعتقد" أن خطيئة السيميوطيقا تتمثل في محاولتها تدمير إحساسنا بالحقيقة في القص.. مع أن هذه الحقيقة تسبق القص في القصة الجيدة وتظل منفصلة عنه"[15]، كما يبدو"جون إليس مفندا للفكر التفكيكي، ومهاجما أسلوب أصحابه، الذي يتم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالاستفزاز في مهاجمة معارضيهم."[16] وأما أبرامز فيعتبر أن التفكيك لا يضع في اعتباره الطريقة التي نمارسها في تدقيق النصوص، أو ما لدينا من إحساس بأن النصوص ذات تفرد، وكذلك لا يهتم بالطريقة التي تثيرنا، وتبعث المشاعر والانفعالات في الناس.[17]

ويذهب نقاد عرب إلى انتقاد المناهج المعاصرة، على النحو الذي نجده عند الغربيين، استنادا إلى ما رأوه من نقائص وعيوب في تطبيق هذه المناهج؛ ففؤاد زكريا يرى أن مطبقي البنيوية يتعسفون" في تطبيق النموذج اللغوي على كل مجالات العلوم الإنسانية، وإنكار تعدد النماذج بتعدد ميادين البحث."وأن" البنيوية فلسفة تصلح لمجتمع تسوده وتحكمه التكنوقراطية"[18] التي لا تصلح إلا لمواجهة القضايا الجزئية الدقيقة ولا تصلح للنظر في المجموع الكلي. كما ينظر عثمان موافي في أعمال عبد الله الغدامي النقدية فيجد أن" تطبيقه شابه بعض القصور، نظرا لخلطه بين البنيوية والتفكيكية أو التشريحية طبقا لتعبيره، وبعض الاتجاهات الأخرى."[19]

أما العامل الثاني فهو البحث عن الآليات التي تدفع إلى تقبل النص الأدبي وإدراك جمالياته وقيمه بعيدا عن التعصب المنهجي الذي يصل أحيانا إلى نوع من الإرهاب المنهجي، ولهذا يطرح حسين جمعة مصطلح القراءة" مصطلحاً منفتحاً بإجراءاته النقدية على المناهج النقدية والأدبية مجتمعة أو منفردة، وعلى تقنياتها؛ فيبيح الشمولية والموازنة والمقارنة." على اعتبار أن هذه القراءة طريقة فنية تؤدي إلى تأسيس منهج نقدي عربي تكاملي أصيل غير معزول عن المناهج النقدية والأدبية؛ وعن العلوم المساعدة الأخرى".[20]

وما يعزز هذا التوجه هو عدم قدرة التحليل النقدي بأنواعه الشائعة على الكشف عن جوهر النص الإبداعي كشفا حاسما نتيجة لتعدد عناصره وتعدد مستوياته، فما من تحليل إلا ويلامس جانبا من النص ويهمل أو يغفل جوانب أخرى، بل إن الجوانب المكتشفة لا تتوضح عند كثير من النقاد بدرجة كافية، بل إنها تتناقض في أحايين كثيرة تبعا للزاوية التي ينطلق منها الناقد.

أما العامل الثالث فيتمثل في أن النقد الأدبي ليس الوحيد الذي يحتاج إلى هذا النوع من المناهج، فقد وجدنا حقولا معرفية كثيرة تميل إليه وتدعو له كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم الدين وغيرها، إذ تتطلب المناهج المنفردة إجراء انتقائية في اختيار النصوص والعينات والموضوعات التي تتلاءم معها؛

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعليه فيمكن للمنهج التكاملي أن يكون حاضرا في جميع الحالات إذا فهمناه على أنه اجتماع لمجموعة مناهج لا يكون تواجدها حاضرا في كل دراسة بل يترك بعضها مكانا لآخر من دراسة لأخرى بحسب متطلبات الموقف.

ولا يستطيع أحد من الناس أن يدعي أن المنهج التكاملي يحل هذا الإشكال حلا حاسما، كل ما في الأمر أنه يحاول أن يخفف من حدة الاضطراب الحاصل على مستوى تطبيق المناهج النقدية المختلفة، لأن الجمع بين عدد من المناهج كفيل بأن يجعل بعضها يعاضد بعضا، فما لا ينكشف بهذا ينكشف بذاك.

خـــــــاتمة :

إذا كان القارئ العربي ما يزال يتغنى بخصوصية لغته وتميز أدبه عما لدى غيره، أفلا يمكن أن يكون المنهج التكاملي في النقد الأدبي العربي متناغما مع هذا الاتجاه في قراءة هذا الأدب؟ وإذا كانت غاية النقد أن يكشف عما تعتقد شريحة واسعة من القراء أنه يمثل القيم الجمالية والإنسانية والاجتماعية، أفلا يكون المنهج التكاملي قادرا على القيام بهذه المهمة على أكمل وجه؟

وبعد كل ما سبق، حري بنا أن ندرك مشكلاتنا النقدية، مقتنعين بأن المناهج النقدية إذا لم تساهم في دفع عجلة الأدب إلى الأمام ، فإنها لا تستحق أن تبذل في شأنها الجهود. ومن بين أهم القضايا التي لا بد من إعادة النظر فيها، والتي تعترض الناقد العربي وهو ينظر في الأعمال الأدبية العربية هي التبعية الفكرية لكل ما هو غربي، وينتج عن هذا تبني الفلسفات الغربية المتصارعة بل والمتناقضة أحيانا، وفرضها على الأدب والنقد كأنها قدرهما المحتوم. لقد ظللنا منذ عصر النهضة العربية ننظر إلى الأوروبي خاصة والغربي عامة على أنه المتفوق، بل الحادي الذي لا بد من السير على حدوه، وإلى فلسفته بأنها قمة التطور الفكري، وبانية الحضارة. ثم تبعته نظرة مشابهة إلى أدبه ونقده، فصرنا لا نستطيع الاكتفاء بما لدينا من مقومات التطور والنهوض، بل أكثر من ذلك بتنا نجلد ذواتنا أسفا على أننا وجدنا في بيئة قاحلة من الفكر والإبداع.

ولا يعني ذلك أن المنهج التكاملي بدعة عربية، بل نجده كذلك في النقد الغربي، وله دعاته وأنصاره ومعارضيه، وإنما عنينا أن طبيعة النقد الأدبي عند

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العرب ربما تشجع على اعتماده عند الضرورة، خصوصا عند المتمسكين بالنقد السياقي الذي طبع نقدنا عهودا كثيرة.

هوامش:

---

[1] صالح بلعيد. في المناهج اللغوية وإعداد البحوث.13. دار هومة- الجزائر. 2005

[2] عبد العزيز عتيق . في النقد ا لأدبي . 308. دار النهضة العربية – بيروت 1972.

[3] يمنى العيد. في معرفة النص. 121 . دار الآفاق الجديدة- بيروت. ط3 – 1985.

[4] عامر رضا، النقـد التّكاملـي وإشكالية تطبيـــقه على الدِّراسات الأدبيّة، مقال على الرابط: http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=15658

[5] عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص. 34. منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق، 2006

[6] عامر رضا. النقد التكاملي وإشكالية تطبيقه على الدراسة الأدبية. مرجع سابق.

[7] انظر: حسين جمعة، المسبار في النقد الأدبي الحديث (دراسة في نقد النفد للأدب القديم وللتناص). 55. منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق. 2003

[8] المرجع ، نفسه .55.

[9] عادل الأحمدي، اتجاهات النقد الأدبي المعاصر في اليمن للدكتور قائد غيلان. ع الرابط:
http://www.nashwannews.com/news.php?action=view&id=3909&spell=%C6%CF+%DB%ED%E1%C7%E4ة0&highlight=%DE%C7

[10] يوسف وغليسي، في حوار أجراه الدكتور محمد الصالح خرفي.االرابط:
http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=8562

[11] "تحليل الخطاب السردي" لمرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1995، ص6

[12] محمد عزام. تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية .63. منشورات اتحاد الكتاب- دمشق. 2003

13 حسين جمعة. المسبار في النقد الأدبي الحديث. مرجع سابق .19.

[14] عثمان موافي . مناهج النقد الأدبي و الدراسات الأدبية ، ج1 .162 . دار المعرفة الجامعية- الاسكندرية .2005.

[15] رامان سلدن. النظرية الأدبية المعاصرة . 87 . تر: جابر عصفور. دار قباء للطباعة والنشر (عبده غريب) 1998

[16] عثمان موافي . مناهج النقد الأدبي والدراسات الأدبية. مرجع سابق. 174.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[17] أرثر أيزابرجر. النقد الثقافي.61. تر: وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي. المشروع القومي للترجمة. ط1 -2003

[18] عثمان موافي . م السابق .161.

[19] م. نفسه. 171

[20] د. حسين جمعة . المسبار في النقد الأدبي . مرجع سابق 22.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com